

كتب بالعربية

مصر التي في خاطري*

دلال البزري

بيروت: دار الساقى للطباعة والنشر، ٢٠١١. ١٩١ صفحة.

تكتب

دلال البزري

انطباعات. تحمل

كاميرا وتراقب نتفأ من مجتمع هو أكثر المجتمعات ضخامة وعصياناً على الحصر في عدسة. تحاول التقاط بعض أنفاسه، وتنخرط فيه ولو بعين تظل خارجية، فيأتي كتابها على شكل مشاهد مشبعة بالأنثروبولوجيا، ومحورها الحجاب أو النقاب وفضاؤهما الديني والاجتماعي.

فصول الكتاب

يتضمن الكتاب، مقدّمة وسبعة فصول.

الفصل الأول، وعنوانه "مصر الصور"، فيه استعادة لما كانت مصر تمثله في مراحل مبكرة من عمر الكاتبة، وإعلان مضمّر بشأن ما سيتضمنه الكتاب من اختلال بين هذا التمثّل وصورة، وبين "الواقع" المُكتشّف ولغته مع بدء

رحلة العيش القاهرية في سنة ١٩٩٩.

الفصل الثاني عنوانه "النقاب والحصانة"، وفيه بحث في طبقات النقاب وأنماطه وسعة انتشاره والمقولات التي تتردد دفاعاً عنه، وعن درئه "الفتنة" عن الرجال، وتحريره المرأة من المظاهر و"المعاكسة". وفيه أيضاً أخبار مفارقات من وحي ارتدائه.

أمّا الفصل الثالث وعنوانه "الحجاب وفتنة الغطاء"، ففيه عرض لأحداث وتوترات وسجلات بشأن الحجاب الذي يجتاح القاهرة، وفيه كذلك تذكير بأن حضوره الهائل هذا يترافق - ولو بغير تناقض - مع تدفق النساء إلى الحيز العام على نحو غير مسبوق في تاريخ مصر.

عنوان الفصل الرابع هو "النساء والرجال، تحرّش لا حب"، ومضمونه بحث في العلاقات الإنسانيّة والكبت الجنسي والعنف والسلوكيات التي

تختلف طبقياً ولو أنها تلتقي في عالم لا مساحة فيه لحبّ وحرية وتوازن أو سوّية.

الفصل الخامس "جسدي

جسدهن" يدخل في يوميات الحجاب وارتدائه وتجارب الاحتماء به والإطلال على مصر عبره لاكتشافها من جديد، أو لاكتشاف جوانب أخرى يغيبها السفور. ويدخل كذلك في حياة شخصيات نسائية نشأت كل واحدة منهن على سيرة، والتقنين لأسباب متعددة خلف القماش بأشكاله وألوانه المتنوعة. "الدين، فقه الطقوس" هو عنوان الفصل السادس، وفيه تعرض البزري احتلال الطقوس الدينية والمظاهر الإسلامية الكثيفة الحياة العامة في مصر، والمساحات، ومدى السمع والبصر.

أمّا الفصل السابع وعنوانه "المثقفون وجهاء بوهيميون"، فيقيم نقداً لشوفينية المثقفين المصريين ولكثير من سلوكياتهم، ولاختباء قسم كبير منهم في خصوصيات مصرية تتيح لهم حصراً أدعاء فهم ما يجري في بلدهم، وجعل كل محاولة فهم يجريها "غرباء" غريبة في عرفهم.

مصر من الداخل... من

الخارج

تعلن دلال البزري في مستهل

(* هذا الكتاب مهدى إلى شهداء ٢٥ يناير، لكنه كتب قبل اندلاع الثورة المصرية.

وارتحال عمال وكوادر طبقة وسطى إلى السعودية للعمل والارتزاق وعودتهم إلى مصر بمظاهر جديدة. وهو اجتياح فاقمته أيضاً أموال الإسلام السياسي ومصارفة الحلال وشبكاته الخدمائية (التعليمية والصحية وسواها) والسياسات الساداتية اللاجئة إليه لمواجهة الخصوم الداخليين وللتلطي بمشروعية "الإيمان" تغطية للنقطة الاستراتيجية والاتفاقات مع إسرائيل. كما فاقمته سياسات الأسلمة الاجتماعية مع مبارك وألوف مشاريع بناء المساجد ودور الصلاة ودروس الدين المنتشرة في كل حي ودسكرة.

إن وصف البزري في بعض فقرات الكتاب للبيئات الاجتماعية التي أنتجت الأجابة يظهر فائض الحضور الديني في القاهرة، واكتظاظ المدينة بطقوس هذا الحضور واحتلاله بمصطلحاته اللغة اليومية بلطفها (الحقيقي أو المصطنع) وبفظاظتها كما بوظيفتها المادية وكلامها المرسل على السجبة. ولعل هذا الاكتظاظ الذي يخنق من ليس عضواً منه جعل الحياة منهكة، واستنزف الوقت والأعصاب والأجساد وأعطيتها.

مصر عشية الثورة

ثمة في الكتاب أحداث وصفحات تشي بأن شيئاً ما سيحدث في مصر: ندوات، تظاهرات، غضب، حصار لصلوات الجمعة، أو هكذا

عنيفة من بعض المثقفين المصريين - وحتماً من أناس "عاديين" - تجاه الكاتبة وحضورها.

الحجاب جسداً ثانياً

يحتل الحجاب المساحة الأوسع من الكتاب، بما هو (الحجاب) زي وتدين واختباء وهوية وحماية وتعبير اجتماعي - ثقافي عن طبقة، أو سياسي عن انتماء، وبما هو أيضاً تجارب وحشوية ووسيلة للنظر إلى المجتمع بيسر وتجنب لـ "البذاءات" من ناحية، وسجن وعذاب حر من ناحية أخرى.

والحجاب في مصر، الذي دحر السفور وجعل منه استثناء، يبدو جسداً ثانياً، جسداً يحتاج بجلده ولحمه إلى قشرة ثانية تختصر حركته وعرقه وتفصيلاته وإنهاكه وغوايته وفرحه وكل ما فيه من ومضات الحياة أو لحظات الكسل. الحجاب إذاً يبدو في ذاته مرآة للجسد، والجسد هو موقع لكل فعل. وقد خاضت الكاتبة في تجربة الحجاب، ثم في تجارب ألبسة تريدها بديلاً منه لا اختلافاً عنه، لكنها أخفقت. على أن إخفاقاتها وما رافقه من اكتشافات خاصة وعمامة أظهر أيضاً، من خلال التأريخ للحجاب وانتشاره، عمق ارتباط الأخير باجتياح الإسلام السلفي لمصر بمختلف طبقاتها الاجتماعية، في النصف الثاني من السبعينيات، وهو، استطراداً، اجتياح بدأ مع الطفرة النفطية في الخليج

كتابها ذاتية لا تتوخى التجرد من العواطف والتجارب الشخصية، ولا تسعى لتجنب الخوض في موضوعات ربما تثير غضباً وحنقاً في دوائر عرفتها وعاشتها. وهي بذلك تحدد هوية ما سيلقي من صفحات، وكذلك علاقة الأمر بتجاربها خلال عقد قضته في القاهرة إلى جانب زوج مصري وصدقات وأصدقاء مصريين. إلا إنها، وعلى الرغم من عرقها في مصر والمصريين، وربما بسبب ذلك، لم تنجح في التحول إلى مصرية، وإنما كانت متهيبة الأمر في البداية، لكن المهابة راحت تتداعى شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت، ومع تكوّن العلاقة بالقاهرة وناسها. لقد اكتشفت أنها لبنانية أكثر مما كانت تظن، أو بالأحرى صارت لبنانية أكثر مما كانت لسببين: الأول علاقتها بجسدها وبمظهرها وبالناس والأمكنة من حولها، والثاني استعصاء المصريين عليها وانغلاقهم في عوالم يتواطؤون على حمايتها أو على ادعاء وجودها واستحالة ولوج غيرهم إليها. وبهذا، تصير دلال البزري في تجوالها وتجاربها وعيشها في مصر، مراقبة خارجية تعيش في الداخل وشاهدة داخلية تأتي من الخارج. على أن الخارج ليس غريباً تماماً عن الداخل، إذ يشاركه اللغة والقدرة على التقاط المعاني التي تفيض بها الأشكال والطقوس وخصائص الأمكنة والأصوات، الأمر الذي ربما ولد ردات فعل

ربما يُخَيَّل للقارئ الآن، بعد أن صار ما صار. ولا أظن أن القراءة ممكنة للنص بصفته وثيقة (ولو مشبعة بالذاتية) عن مرحلة هي بالضبط مرحلة الأعوام عشية الثورة، من دون أن تكون مشاهد ميدان التحرير وتظاهرات الإسكندرية والسويس والإسماعيلية وغيرها من مدن مصر الكبرى مخيِّمة فوقها، أو بالأحرى مألوفة ستفضي إليه الوثيقة. فالثورة تفرض نفسها كأنها احتمال، كأنها نتيجة لا مفرَّ منها للاختناق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، للتدهور والتهلل وتساقط المباني، لليفاعة في السن، ولحضور النساء (ولو بأجسادهن المخبأة) في الحيِّز العام. وحتى حين تشير الكاتبة إلى

استيعاب القاهرة للتاريخ كأنها متحف أو ساحات تحتلها المعالم التاريخية والإشارات والمرجعيات المفتعلة أو المتوارثة فعلاً، فإن شيئاً ما يبقى منذراً بحدث جلل، ويتناقضات لا بد من أن تعبّر عن نفسها على نحو جديد؛ نحو يشبه جيلاً لم تكتشفه البزري تماماً، ولم يكتشفه أحد من المصريين ومن المثقفين البوهيميين الذين يدعون امتلاكاً لمعرفة مصر سوسولوجياً أو أنثروبولوجياً. جيل أتى من قلب الضجيج، من خلف الحجاب، أو من مواقع التمرد عليه، من خلف شاشات الكمبيوتر ومن مقاعد الجامعات والمقاهي المختلطة، وحتى من المصالح والمشاكل. جيل أتى كذلك من المساجد وأيام الجمعة ورموز الدين كي يقول إن

شيئاً ما سيتغير في مصر، تلك المقيمة منذ الأزل على ضفة النيل، أو تلك المقيمة في خاطر دلال... لا أعرف من من النسوة اللواتي نكرتهن البزري في كتابها كن في ميدان التحرير، ومن قاد منهن تظاهرات ومن هتف. ربما يسهل تخيّلهن جميعاً هناك، بين مئات الألوف، لا يميّزهن الواحد، وإنما تختلط روائحهن في بحر الروائح، وتضيع أصواتهن في نبع الأصوات المطالبة بإسقاط النظام، وتتمايل أجسادهن خلف الجسد الثاني، خلف الحجاب، تنتظر زمناً جديداً، زمناً سيبقى في خواطرهن وخواطرنا طويلاً...

زياد ماجد

كاتب وباحث لبناني

سقوط الدولة البوليسية في تونس

توفيق المدني

بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، ٢٠١١. ٣٠٤ صفحات.

النقاش مفتوحاً
سبب في الأمد المنظور بشأن تعريف الحراك الشعبي الشجاع الذي انطلق قبل سبعة أشهر من تونس، ثم انتقل إلى بلاد عربية أخرى، وهل هو تعبير عن ثورة بمقاييس الثورات المعهودة أم إنه

الهيئة الشعبية التي أطاحت بنظام بن علي وحاشيته وبطانته من العائلات المافيووية هي "ثورة شعبية" التحقت بها الطبقة شبه الغنية في تونس والبورجوازيات الصغيرة والطبقة المتوسطة من التجار ورجال الأعمال، كما أن الجيش وقف إلى جانب الثورة وضد الديكتاتور. ويشدد المدني في مقدمة كتابه على أن الثورة الشعبية هذه لم تكن مؤطرة من طرف الأحزاب والحركات الأيديولوجية التقليدية [الماركسية والقومية والإسلامية]، والتي لم تستطع أن تتركب موجة الحراك الاجتماعي،

انتفاضة يمكن وصفها مجازاً بالثورة نظراً إلى ثقل وفداحة التسلط الذي مارسه نظم سلطوية وبوليسية على مجتمعاتها بغية تدجينها ومنعها من اختبار درجة تحققها السياسي؟ ويكاد الباحث التونسي توفيق المدني يجزم أن